مرآة الجزائر

مؤلفه

علي رضا پاشا بن حمدان بن عثمان خوجه الجزائري

(ت 1293 هـ / 1876 م)

ترجمه من التركية العثمانية إلى العربية

ووضع مقدمته وتعاليقة وملاحقه وفهارسه

خليفة حماش

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية / قسنطينة

نسخة الكترونية منشورة على شرف الطلبة الجزائريين بمناسبة ذكرى
تحرير وهران والمرسى الكبير من الاحتلال الإسباني

قسنطينة: 1442 هـ / 2021 م

الفصل السادس

يتناول [هذا الفصل] قدوم سفينة من نوع قباق[251] من فرنسا إلى الجزائر قبل اندلاع الحرب، من أجل التفاوض، وإصرار الباشا [حسين] على خوض الحرب خلافا لشروط المعاهدات، وانهزام السفن الجزائرية [في معركة ضد البحرية الفرنسية][252].

في هذه الأثناء [3 أغسطس 1829 م] قدِمت سفينة كبيرة من نوع قباق من فرنسا، ورفعت الراية البيضاء الدالة على طلب التفاوض، وتوجهت نحو مكان قريب من الميناء ورمت مخاطيفها، ونزل منها بعض الضباط وتوجهوا على متن زورق إلى البر، ووضّحوا [لقائد الميناء] أنهم أتوا من أجل التفاوض مع الباشا [حسين]، وعندما اقتيدوا إلى ديوان الباشا قالوا له: "يا سيدي، ربما قنصلنا قد ارتكب خطأ وقام بسلوكات منافية للأدب معكم، فسامِحوه على ذلك، ولكن قيامكم أنتم بضربه على وجهه بالمنشة هو سلوك غير لائق. ومهما يكن فنحن أتينا لطلب الصلح معكم، وأحضرنا في هذه السفينة كثيرا من المال لكي يُقدّم لكم، (ص 63) ورجاؤنا الوحيد منكم هو أن تعيّنوا شخصا من جانبكم لنأخذه معنا إلى فرنسا، ونُظهر من خلاله للسكان كأنكم طلبتم الصلح معنا، ونهدّئ بذلك من غضبهم، وبعد ذلك سنفعل كل ما ترونه بخصوص الخلاف الواقع بيننا، لأن مَلكنا هو بجانب الصلح دائما. ونعتقد أن هذا الرأي سيكون هو الأحسن لكم". وبعد أن سمع الباشا [حسين] هذا الكلام من هؤلاء

---

[251] قباق: هي سفينة كبيرة الحجم ذات طابقين.

[252] وقعت تلك المعركة يوم 13 ربيع الأول 1243 هـ / 4 أكتوبر 1827 م. وهي آخر معركة بحرية خاضها الأسطول الجزائري في العهد العثماني، وكان هدفها فك الحصار الذي فرضه الأسطول الفرنسي على مدينة الجزائر.)راجع بخصوصها عملنا: الجزائر والحرب اليونانية العثمانية، مصدر سابق، ص 51. 58).

الضباط الفرنسيين، اعتقد أن فرنسا طلبت الصلح بهذه الطريقة بسبب خوفها من الجزائر، ولذلك عنّفهم وصاح في وجههم قائلا: "أنا لا أعترف بأي شيء إلاّ الحرب"[253].

ولما كنتُ أنا في فرنسا[254] التقيتُ صدفة مع السيد "بيانكه / بيانكيBianchi"[255] الذي جاء آنذاك [إلى الجزائر مع الضباط المذكورين] للقيام بالترجمة [بينهم وبين الپاشا]. والشخصية المذكورة هو مؤلف كتاب في شكل قاموس يجمع بين التركية والفرنسية[256]. وسألتُه هو نفسه عن الكيفية التي حدثت بها تلك الواقعة، فروى لي وهو يتأسف، بأن الحديث تم فعلا مع پاشا الجزائر بتلك الطريقة، وأنه هو نفسه قال لحسين پاشا باللغة التركية: "إن هذا

---

[253] حول هذه الحادثة، وحسب وجهة النظر الفرنسية، راجع:

Bianchi (Thomas – Xavier), Relation de l'arrivée dans la rade d'Alger du vaisseau de S. M. La Provence sous les ordres de M. le Comte de la Bretonnière et détails de l'insulte faite au pavillon du roi de France par les Algériens, le 3 août 1829, in : R. A. 21 / 1877, pp 409 - 437.

[254] يقصد المؤلف هنا نفسه، لما كان في مرحلة الدراسة في المدارس العسكرية الفرنسية التي التحق بها في عام 1834 م.

[255] هو توماس كسافيي بيانكي Thomas - Xavier Bianchi (1783 . 1864 م)، مستشرق وعالم تركيات فرنسي، وله عدة أعمال تتعلق بالدراسات التركية، من قواميس، ووثائق مترجمة، ودراسات حول موضوعات مختلفة، زيادة على بعض الأعمال حول الدراسات العربية. وكان له نشاط معتبر في المجلة الآسيوية التي تهتم بالدراسات الشرقية. (وقد ترجمنا له في عملنا الذي نحن بصدد إنجازه حول: علم التركيات وأعلامه).

[256] يقصد بذلك الكتاب، القاموس التركي الفرنسي الذي أصدره بيانكي في باريس في مجلدين عامي 1835، 1837. وهذا يدل على أن علي رضا پاشا كان في هذا التاريخ موجودا في باريس. والقاموس هو:

Dictionnaire Turc - Français, 2 vols, 1re édition, Paris, Imprimerie Royale, 1835, 1837.

التصرف الذي صدر منكم غير لائق بتاتا، **(ص 64)** وستندمون عليه فيما بعد ". ولكن الپاشا أصر على جوابه السابق، وقال: "اذهبوا بسرعة فأنا لا أعترف بأي شيء إلاّ الحرب". وبناء على ذلك الإصرار منه على الحرب قام المبعوثون الفرنسيون ونزلوا إلى الميناء، وعند ذلك أرسل الپاشا من يقول لهم بأن عليهم أن يرفعوا مخاطيف سفينتهم بسرعة ويغادروا الميناء، وأن يمروا في عرض البحر وألا يقتربوا من حصون المدينة"[257]. ومع أن قائد السفينة قال: إذا تم رفع المخاطيف الآن فإن الرياح ستدفع السفينة حتما نحو المدينة"، فإن الپاشا أصر على أمره السابق وأرسل يقول لهم من جديد:"إن أمرى أمْر، ولا أعترف بأمر آخر غيره". وفور ذلك ركب الضباط وهم مكرهون، على متن السفينة وفتحوا الأشرعة وأبحروا، وبذلوا جهدا كبيرا لكيلا يقتربوا من الحصون، ولكن مع ذلك لم ينجحوا، وأُرغموا على الاقتراب من الحصون. وعلى إثر ذلك بدأ إطلاق المدافع عليهم. وتلك هي رواية السيد بيانكي[258].

وقد توجه في تلك الأثناء بعض ضباط البحرية [الجزائريين] من ذوي التجربة والخبرة، إلى الپاشا، وأخبروه أن اقتراب السفينة من الحصون لم يتم من تلقاء نفسها، وإنما تم بفعل الرياح، وبما أن راية المفاوضات قد رفعت على صاريتها، **(ص 65)** فإن إطلاق المدافع عليها هو عمل مخالف للقوانين البحرية، ولكن الپاشا أصر على تنفيذ أوامره وقال لهم: "إذا لم يتم إطلاق المدافع على السفينة فسآمر بقتل قائد المدفعية (طوبجى باشي)". وعند ذلك بدأ إطلاق المدافع، وأصابت القذائف غرفة قيادة السفينة. وحينذاك قام قائد السفينة على جناح السرعة بغلق منافذ المدافع في السفينة، وهي إشارة تفيد [حسبما

---

[257] قال الپاشا ذلك لأنه كان يعلم جيدا أن السفينة تقوم بالتجسس على قوات الجزائر البحرية، وإمكانتها الدفاعية.

[258] راجع رواية بيانكي حول الحادثة كاملة في مقالته التي نشرها في المجلة الأفريقية (مج 29 / 1877)، وقد أشير إليها في هامش سابق.

هو متعارف عليها بين قادة السفن] أنه مهما كانت القذائف المدفعية التي ترمى [على سفينته] فهو لن يرد عليها. ولكن القذائف المدافعية بقيت تُطلق بلا توقف إلى أن ابتعدت السفينة عن المدينة، وتم إنقاذها في النهاية بصعوبة كبيرة.

وبعد بضعة أيام من ذلك [(أي من حدوث واقعة المروحة يوم 29 أفريل 1827 م)][259] جاء أسطول فرنسي ضخم وحاصر الجزائر من جهة البحر بكاملها، بحيث صار لا يمكن حتى ولو لزورق واحد من الزوارق الجزائرية، وليست السفن، أن يدخل إلى مدينة الجزائر. ودام الحصار نحو شهر، ومس بكبرياء الپاشا وشرفه، ولذلك أمر ضباط البحرية بتجهيز جميع السفن الكبيرة والصغيرة، وملئها بالجنود، والقيام بهجوم على الأسطول [الفرنسي]، وبناء على ذلك تم إعلان (الجهاد في سبيل الله) للسكان بواسطة الدلاّلين (البراحين). وملئت السفن بالجنود، وفتحت أشرعتها جميعا **(ص 66)** وخرجت [يوم 13 ربيع الأول 1243 هـ / 4 أكتوبر 1827 م] للهجوم على الأسطول [الفرنسي]، وسارت تحت الريح، وحاولت أن تناور للاقتراب من السفن الفرنسية، ولكنها لم تستطع النجاح في ذلك بسبب القذائف المدفعية المتتالية التي كانت ترمى عليها من السفن الفرنسية من بعيد، ولذلك حُطمت أشرعة وصواري السفن الجزائرية بتلك القذائف، وتحولت بسبب ذلك إلى هياكل، واستطاعت أن تعود إلى الجزائر بصعوبة كبيرة، بعضها بمساعدة الأمواج، وبعضها الآخر بالمجاذيف. وكان عدد القتلى والجرحى الذين سقطوا بين قادة السفن

---

[259] إضافة هذه العبارة هنا ضرورية من أجل ترتيب الأحداث التاريخية، لأن المؤلف اختلطت في ذهنه الوقائع ولم يكن باستطاعته ترتيبها ترتيبا تاريخيا. وحسب تعبيره فإن الحصار الفرنسي على الجزائر بدأ بعد حادثة السفينة التي روى تفاصيلها أعلاه، بينما هو في الحقيقة بدأ بعد واقعة المروحة التي حدثت يوم 930 أفريل 1827 م، بينما حادثة السفينة كانت يو 4 أغسطس 1829 م.

[الجزائرية] لا يحصى[260]. وهذه هي الصورة [المؤلمة] التي أوصل إليها سوءُ تدبير حسين باشا الوضعَ [في الجزائر].

****

[260] حدثت هذه المعركة البحرية بسبب قيام البحارة الجزائريين بمحاولة فك الحصار على الجزائر، وكانت يوم 13 ربيع الأول 1243 هـ / 4 أكتوبر 1827 م. وهذا الوصف الذي قدمه المؤلف للمعركة يتمشى والرواية الفرنسية، ولكن هناك رواية أخرى لتلك المعركة في الوثائق الجزائرية، وهي بصورة مختلفة تماما، إذ تظهر تلك الرواية أن السفن الجزائرية حققت انتصارا مشرفا لها على السفن الفرنسية. (راجع: خليفة حماش، الجزائر والحرب اليونانية العثمانية، مصدر سابق، ص 51 ـ 58.).